

# مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

## Orthodox Archdiocese of Beirut

نبوءة القديس في وقتها فشعر أن ساعة انسلاخه عن العالم حانت، فترك محل عمله وأرض أهله إلى موسكو ليبدأ مسلكه المبارك.

في عجقة المدينة الكبرى ساح القديس باسيليوس متبالهاً، في مسلك لعله وجد فيه خلوته المنشودة في الله والمناعة تجاه أي مجد أرضي. تجدر الإشارة هنا إلى أن التباله لأجل المسيح كان نمطا نسياً ناهضاً في

روسيا تلك الأيام، وقد أولد قديسين عديدين. كان يمضي نهاره في الطرقات والساحات العامة، شبه عار، صامتاً صمّت نساك

القفار، وليله مصلياً عند بوابات الكنائس. في غربته المطلقة عن الناس والعالم واهتماماته، لم ينقطع القديس البتة عن المحزونين والمظلومين والمرضى، مقتفياً آثارهم، حاملاً برحمة فائقة أوجاعهم. من هؤلاء نزلاء سجن كان مخصصاً لمدمني الخمر بات يزورهم باستمرار معزياً بالرحمة الصادقة، حاثاً إياهم على التوبة.

لعل كل تصرفات القديس، الغربية في ظاهرها كانت تتضح نبوية. فهو مثلاً كان يرشق جدران بعض المنازل بالحجارة، ويقترب ليقبل جدران بيوت أخرى. ولدى سؤاله عن

### القديس باسيليوس المتباله لأجل المسيح

في اليوم الثاني من شهر آب تُعيدُ كنيستنا المقدسة، ولا سيما في روسيا، لأبيننا البار باسيليوس الذي عاش متبالهاً لأجل المسيح ولا معاً بمواهب النبوءة والعجائب في موسكو بين

منتصف القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر. وُلد القديس سنة ١٤٦٤ في بلدة إيلخوف القريبة من موسكو لأبوين بسيطَي الحال أوصيا به إلى اسكافي

يعلمه الصنعة، منذ صباه. بدا الصبي جاداً في عمله، على وداعة وطاعة، وبدا عليه صغيراً حب الاختلاء إلى الله في الصلاة.

أولى بوادر النعمة الإلهية عليه أتت وهو في السادسة عشرة من عمره. حدث هذا عندما أتى تاجر موسكوبي إلى رب عمل باسيليوس يوصيه بعمل مجموعة من الأحذية الفاخرة فانتقده القديس دون أن يتجاوز حد الاحترام. إثر إلحاح الاسكافي، بُعيد مغادرة التاجر المشغل، أجاب الصبي متسائلاً عن جدوى وضع طلبية تكفي لسنوات من إنسان سوف يموت في الغد. تحققت

### الرسالة

(رومية ١٥: ١-٧)

يا إخوة يجب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل وهن الضعفاء ولا نرضي أنفسنا\* فليرض كل واحد منا قريبه للخير لأجل البنيان\* فإن المسيح لم يرض نفسه ولكن كما كتب تعبيرات معيريك وقعت علي\* لأن كل ما كتب من قبل إنما كتب لتعليمنا ليكون لنا الرجاء بالصبر وبتعزية الكتب\* وليعطكم إله الصبر والتعزية أن تكونوا متفقي الآراء فيما بينكم بحسب المسيح يسوع\* حتى إنكم بنفس واحدة وفم واحد تمجدون الله أباربنا يسوع المسيح\* من أجل ذلك فليتخذ بعضكم بعضاً كما اتخذكم المسيح لمجد الله.

## الإنجيل

(متى ٢٧:٩-٣٥)

في ذلك الزمان فيما يسوع مجتاز تبعه أعميان يصيحان ويقولان ارحمنا يا ابن داود فلما دخل البيت دنا إليه الأعميان فقال لهما يسوع هل تؤمنان أنني أقدر أن أفعل ذلك. فقالا له نعم يا رب حينئذ لمس أعينهما قائلاً كما يؤمنكما فليكن لكم. فانفتحت أعينهما. فانتهرهما يسوع قائلاً أنظرا لا يعلم أحد فلما خرجا شهراً في تلك الأرض كلها وبعد خروجهما قدموا إليه أحرص به شيطان فلما أخرج الشيطان تكلم الأحرص فتعجب الجموع قائلين لم يظهر قط مثل هذا في إسرائيل أما الفريسيون فقالوا إنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين وكان يسوع يطوف المدن كلها والقرى يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مريض وكل ضعيف في الشعب.

## تأمل

لاحظ عزم الأعميين

هذا التصرف مرة أجاب أن البيوت التي يرحم جدرانها سكانها أتقياء أفاضل، وهو يرحم الشياطين المتربصة خارجها كي لا تقوى على الدخول. أما البيوت التي يقبل زواياها فهي لأناس خطاة فاسقين، وهو يلثم جدرانها إكراماً لملائكة الله المحرومة من دخولها بسبب آثام سكانها. في حادثة أخرى أرسل له القيصر مرة بعض المال، فذهب لتوه يعطيه لتاجر في السوق، كان قد فقد كل ماله، ولم يكن يقوى على الاستجداء لإطعام عائلته.

سنة ١٥٢١، وبينما كانت جيوش التتار الغازية بقيادة محمد حيراي قد بلغت مشارف موسكو، كان القديس يصلي بدموع حارة من أجل خلاص وطنه وشعبه أمام بوابة كاتدرائية رقاد الكلية القداسة. أثناء صلاته سُمع في الكاتدرائية دوي رهيب وارتفع منها شهيق نار، وسمع صوت العذراء مريم من أيقونة قازان وهي تقول إنها سوف تتخلى عن موسكو بسبب آثام سكانها. زاد القديس إذاك من صلاته ودموعه فكفت الرؤيا المهيبة. في الوقت عينه، وبينما كان القائد التتاري يحرق ضواحي المدينة، ظهرت أمامه جحافل من الجيوش أرعبته فانكفأ إلى خلف الحدود الروسية.

القيصر إيفان الرابع، الملقب بالرهيب، كان يكن للقديس مودة واحتراماً باديين، بالرغم من أن القديس ما كان يداهنه ولا يهاب سطوته عند اللزوم. مثلاً على ذلك أنه دنا من القيصر مرة بعد القداس الإلهي ليوبخه على شرود ذهنه، أثناء الخدمة الإلهية، في مشروع بناء قصره الجديد بدلاً من أن يكون مهموماً بخلاص نفسه.

سيرة القديس باسيليوس تحفظ له

الكثير من الآيات وهو بعد في هذا العالم. منها أنه شوه في إحدى الليالي من العام ١٥٤٧ يبكي بمرارة تفوق حد الاحتمال البشري، أمام بوابة كنيسة ارتفاع الصليب الكريم، في المكان نفسه الذي اندلع منه بعد أيام حريق اجتاح موسكو برمتها. هذا وكان قد روى كثيرون، قبل هذه الحادثة، أنهم رأوا بأمر العين البار باسيليوس ظاهراً في السماء فوق مدينة نوفغورود يرش الماء من يديه على بيوتها مطفئاً حريقاً كاد يجتاحها. سنوات نسكه الإثنتين والسبعين، بما فيها لحظات رقاذه كانت تجلياً مستمراً لمجد الله. ففي الثاني من آب سنة ١٥٥٢، وبعدما حط به المرض، شع وجه القديس أمام أعين القيصر وعائلته الذين كانوا قد هرعوا إليه، ووقد بفرح الأبرار الواثقين. جثمان البار حمله القيصر وأبناؤه على الأكف، ورائحة الطيب تلازمه، إلى قبر شيدت عليه فيما بعد كنيسة للكلية القداسة. سنة ١٥٨٨، وبعد سجل زاخر بالعجائب على قبر باسيليوس، أعلنت الكنيسة الروسية قداسه رسمياً وقد تم تسجيل حوالي ١٢٠ حالة شفاء مؤكدة أثناء الاحتفال.

## المدينة والهيكل

### في كتاب حزقيال

تشير الآيات الأولى من كتاب حزقيال (١: ١-٤) إلى أن النبي كان من الكهنة الذين حلوا في بلاد بابل مع الجلاء الأول، أي قبل سقوط أورشليم وخراب هيكلها، العام ٥٨٧ ق.م.، بردح من الزمن لا نستطيع تحديده بدقة. والمعروف أن الملك البابلي نبوخذنصر شرع يقوم بغزواته الأولى في أرض فلسطين في

الواضح من خلال صراخهما وتوسلتهما. لم يكتفيا بالافتراب منه بل صرخا ولم يطلبوا سوى الرحمة. «أرحمنا يا ابن داود!» قالوا «يا ابن داود» لأن هذا الإسم كان مكرماً لديهما. هكذا كان الأنبياء يكرمون الملوك بإسنادهم لهم هذا اللقب.

بعد أن قادهما إلى البيت سألهما ثانية «أتؤمنان أنني قادر أن أفعل هذا؟» لقد سعى في مواضع كثيرة أن يشفي بعد توسل المرضى حتى لا يعتقد أحد أنه يقوم بالعجائب حباً بالمجد. وليس فقط بسبب ذلك بل وأيضاً ليُظهر أنهما يستحقان الشفاء. رب قائل إن كان يفعل إنطلاقاً من رحمته، كان عليه إذاً أن يشفي الجميع. أما أنا فأقول: الإحسان له أيضاً مسبب وهو إيمان طالبيه. ولم يطلب فقط إيمانها بل وأيضاً أراد أن يرفع الحاضرين روحياً عن طريق لقبه «ابن داود» وأن يعلمهم كيف يجب أن ينظروا إليه بقوله: «أتؤمنان اني قادر أن أفعل هذا؟»

أجابا «نعم يا رب» لم يسمياه ابن داود بل الرب وهو أسمى روحياً. اعترفا انه الرب. عندها وضع

الكنعانية الأخرى المحيطة بإسرائيل، من فينيقيين وعمونيين وأدوميين. رغم ذلك، ما كان شيوخ الشعب يتورعون عن اللجوء إلى الحجّة القائلة بأن السيد الرب، إله إسرائيل، لا يمكن أن يسمح بدمار مدينته وخراب هيكلها، لأنه لا يستطيع ضمان استمراريتها كإله إلا عبر المحافظة على أورشليم.

بيد أن كتاب حزقيال يأتي ليبرهن العكس. فإله مزعم أن يدمر هيكله بنفسه، لأن هذا الهيكل بات موضع فسق ومكان فجور. لذا، يغادر مجد الرب الهيكل (١٨:١٠-٢٢)، ويعلن الرب أنه محول مدينته إلى محرقة: «ويل لمدينة الدماء، إنني أنا أعظم كومتها» (٩:٢٤). ولكن كيف يستمر الله من دون مدينته وهيكله؟ لقد سبق النبي إرمياء فأنبأ بأن الله يجعله مدينة حصينة (إر ١٨: ١)، كأن النبي بات يحل محل أورشليم، من حيث أنه أصبح هو، لا الهيكل، مرجعاً لحضور كلمة الله والكشف عن مقاصده. هذا التماهي بين كلمة الله والنبي، الذي يضمن استمرارية الحضور الإلهي، رغم سقوط أورشليم وهيكلها، يبلغ ذروته في نبوءة حزقيال، حيث نجد أن الله يطلب من النبي أن يأكل السيفر الذي يحوي كلمته، رغم ما تعلنه هذه الكلمة من عقاب سينزل بالشعب الأثم التارك الرب: «فنظرت، فإذا بيدٍ قد مدت إلي، وإذا بسيفر فيها... وقد كتبت فيه مرات ونوحا وعويل. فقال لي، يا ابن الإنسان... كل هذا السيفر واهب فكلم بيت إسرائيل... وقال لي... أطمع جوفك وأملاً أحشاءك من هذا السيفر الذي أنا مناولك» (٣:٣-١٠:٢).

تحقق خراب المدينة والهيكل، الذي تنبأ به حزقيال، باجتياح أورشليم على يد الملك البابلي نبوخذنصر في

العام ٥٩٨ ق.م. هذه الملاحظة، التي قد تبدو للوهلة الأولى مجرد إشارة تاريخية هامشية، هي غاية في الأهمية. لقد كان حزقيال أول نبي قام بمهمته من خارج الأرض المقدسة، أي أن وحي الرب، إله إسرائيل، لم يكن مقتصرًا على المساحة الجغرافية التي كانت تختص به، أي مملكة يهوذا، بل يشمل المعمورة كلها، وهو قادر على اختراق أرض الأعداء والظهور لأخصائه في عقر دار الذين سبّوهم. ويعبر حزقيال، في كتابه، عن هذه الحقيقة على نحو أخاذ، إذ يبين كيف أن مجد الله يترك المدينة المقدسة أورشليم لينتقل إلى بلاد السبي: «وصعد مجد الرب من على وسط المدينة، ووقف على الجبل الذي على شرقي المدينة، وحملني روح وجاء بي في الرؤيا بروح الله إلى أرض الكلدانيين، إلى المسييين» (١١: ٢٣-٢٤).

تتكشف هذه الصورة انطلاقاً من واقعة دمار الهيكل، والحق أن حزقيال، بوصفه كاهناً، يكرس لفكرة الهيكل أجزاء مديدة من كتابه. فخطيئة إسرائيل هي، في الأساس، خطيئة الانتقال إلى عبادة الآلهة الوثنية، آلهة الشعوب المجاورة. حتى أن هذه العبادة متأصلة في طقوس هيكل أورشليم ذاته. فهو يعج بالأصنام (٨: ٥)، وشيوخ إسرائيل يبخرون فيه للبهائم القذرة (٨: ١٠)، والنساء يبكين على الإله تموز ذي الأصل الرافدي (٨: ١٤) الذي دعاه الكنعانيون أدون واليونانيون أدونيس، أما الرجال فيسجدون للشمس (٨: ١٦). والحق أن هذه الصورة، التي يمعن كتاب حزقيال في وصفها، إنما تؤكد الحفريات الحديثة التي قام بها علماء الآثار في العقود المنصرمة، إذ تظهر هذه الحفريات أن عبادة الآلهة الوثنية كانت مستشرية في كل بقعة من بقاع فلسطين، وذلك أسوة بالشعوب

يسوع يده عليهما وقال «بحسب إيمانكما ليكن لكما». هذا ليدعم إيمانهما وليظهر انهما يشتركان في العجيبة وان كلامهما لم يكن بدافع التمليق. لم يقل لتُفتح أعينكما بل قال «حسب إيمانكما ليكن لكما». وذلك لكي يظهر الإيمان قبل شفاء العينين الجسديتين. هكذا فعل مع المخلّع. قبل أن يشفي جسده قال له: «ثق يا بني مغفورة لك خطاياك» (متى ٩: ٢) كذلك فعل مع ابنة رئيس المجمع الذي بعد أن أقامها ومسكها بيدها أوصى والداها أن لا يقولوا لأحد (لوقا ٨: ٥٥-٥٦) وفي حادثة قائد المئة أكد أيضاً على الإيمان (متى ٨: ١٠-١٣) وأنقذ تلاميذه من العاصفة بعد أن حرّهم من ضعف إيمانهم (متى ٨: ٢٦). هنا إذاً يفعل كذلك. كان يعلم بما يجول في ذهنهما ولكنه أراد أن يدخل في آخرين هذه الغيرة. لذلك كشف عن إيمانها حتى يكرز عن طريق الشفاء بالإيمان الذي كان في داخلهما.

**القديس يوحنا الذهبي الفم**

العام ٥٨٧. كل شيء يشير إلى أن حكاية الله مع شعبه انتهت. فالدمار قد حلّ، والهيكل باد عن بكرة أبيه، والشعب أصبح لا يرى ذاته إلا كومة من العظام: «هذه العظام هي كل بيت إسرائيل. ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. قد انقطعنا» (٣٧: ١١). ولكن في هذه اللحظة بالذات، وفي ظل غياب كل مؤشّر بشريّ يوحي بالرجاء، ينبري حزقيال، في الجزء الثاني من كتابه، إلى إعلان الخلاص الذي سيحققه الله، بعدما تنبأ بالدمار، في الجزء الأول. فالله سيعيد تكوين الشعب، الذي تحوّل إلى ركام، بروحه القدس، فيجيبه ويجعل منه جيشاً عظيماً (حز ٣٧). ولقد اختار واضعو الترتيب الليتورجيّ أن تقرأ هذه النبوءة بالذات من كتاب حزقيال، التي يتكلم فيها الله عن إقامة شعبه، في خدمة جناز المسيح، لما تحتوي عليه من عميق التعبير عن معنى الخلاص الذي حققه الله عبر إقامته يسوع من بين الأموات. ولكن ماذا عن المدينة والهيكل في صورة الخلاص هذه التي يفصح عنها كتاب حزقيال؟

يُفرد حزقيال الإصحاحات الثمانية الأخيرة من كتابه (٤١-٤٨) لوصف الهيكل الجديد الذي سيقمه الله في مدينته، بعدما تمت أيام عقابها. فمجد الرب سيرجع إلى الهيكل من جديد (٤٣: ١-٥)، ومن الهيكل تنبثق ينابيع تروي الأرض بأسرها (٤٧)، ما يذكر بالصورة الفردوسية القديمة. من الملاحظ أن حزقيال في هذه الإصحاحات يُغرق في وصف الطريقة التي ينبغي أن تتمّ فيها عبادة الهيكل، حتى إن قارئه قد يصاب بالملل لكثرة التفاصيل. ولكن هذا الإمعان يجب أن يفهم في ضوء ما كان يرتكب في الهيكل من انحرافات العبادة الوثنيّة، ما حدا بالنبويّ إلى الإطالة والتوقف عند التفاصيل. والجدير بالذكر أنه لا يتوقف كثيراً عند وصف المدينة.

فالأهمّ، في رأيه، هو الهيكل الذي يتوسّطها ويقرّر ماهيّتها، أي عبادة الله. ويتأكد هذا الانطباع في الآيات الأخيرة من الكتاب التي يقدم فيها النبيّ خلاصته: «واسم المدينة من ذلك اليوم يهوه» (٤٨: ٣٥). جوهر المدينة الجديدة، إذاً، هو حضور الله فيها عبر هيكله، حتى أن اسمها يتغيّر، ليعبر عن هذا الحضور. الأسماء غير مهمّة في ذاتها، وكذلك المواقع. فالأمكنة مهمّة على قدر ما تُفصح عن حضور الله. ولقد تلقف العهد الجديد هذا الدرس النبويّ الذي يعبر عنه كتاب حزقيال أيّما تعبير، حين جعل إنجيل يوحنا، مثلاً، من جسد يسوع الهيكل الجديد الذي يُنقّض ويقام في ثلاثة أيام. فيسوع ليس فقط النبيّ الأعظم الذي صار إياه كلمة الله: «في البدء كان الكلمة» (يو ١: ١)، بل هو أيضاً الهيكل الجديد، المكان الجديد الذي يُعبد فيه الله ويتحقّق فيه حضوره. فليس من قبيل المصادفة أن الرسول بولس يستخدم للكنيسة، جماعة الله، صورة جسد المسيح. إن هذه الصور التي ألفناها، والآتية إلينا من كتب العهد الجديد، إنّما هي متّصلة في المنطق النبويّ الذي عبر عنه الأنبياء، بمن فيهم حزقيال، لمّا رأى أورشليم تتحوّل إلى هيكل، فيسكنها مجد الله من أقصاها إلى أقصاها.

**بالامكان الإطلاع على النشرة**

**أسبوعياً على صفحة الإنترنت:**

**www.quartos.org.lb**